

المحاضرة الرابعة

الحديث الثالث : (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك)

عن أبي العباس عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً، فقال: ((يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقاليم، وجفت الصحف))؛ رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، وهو من المكثرين، ولُقِّب بترجمان القرآن، وكان يسمى البحر؛ لغزارة علمه، فهو من الراسخين فيه، وصح أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا له بقوله: ((اللهم فقِّههُ في الدين، وعلمه التأويل)). .

منزلة الحديث:

❑ قال الإمام النووي رحمه الله: هذا حديث عظيم الموقع .

❑ قال ابن رجب رحمه الله: وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمةً، وقواعد كلية من أهم أمور الدين وأجلِّها، حتى قال بعض العلماء -: تدبرت هذا الحديث، فأدهشني وكدت أطيئش، فوأسفا من الجهل بهذا الحديث، وقلة التفهم لمعناه.

❑ قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: هذا الحديث باعتبار طريقته حديث عظيم الموقع، وأصل كبير في رعاية حقوق الله، والتفويض لأمره، والتوكل عليه[٤].

غريب الحديث:

❑ خلف النبي صلى الله عليه وسلم: أي راكبًا خلفه على دابته.

❑ غلام: هو الصبي من حين يفطم إلى تسع سنين.

❑ كلمات: أي جُملاً تحتوي على نصائح.

❑ احفظ الله: اعرف حدوده، وقف عندها.

❑ يحفظك: يصونك.

❑ تجاهك: أمامك.

❑ سألت: أردت أن تطلب.

❑ رفعت الأقاليم: فرغت من الكتابة.

❑ وجفت الصحف: المراد بالصحف: ما كتب فيه مقادير المخلوقات في اللوح المحفوظ، والمقصود أن ما كتبه الله

عز وجل قد انتهى؛ فالأقلام رفعت، والصحف جفت، ولا تبديل لكلمات الله.

❑ الرخاء: سعة العيش، والأمن، والراحة.

المعنى العام للحديث:

((كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم)): يحتمل أنه راكب معه، ويحتمل أنه يمشي، ولكن نقل الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أهدى كسرى للنبي صلى الله عليه وسلم بغلة فركبها بحبل من شعر، ثم أردفني خلفه وسار بي ملياً، ثم التفت فقال: يا غلام، إلخ . ((يوماً، فقال)) لي ((يا غلام))، وهو الصبي من حين يفظم إلى تسع سنين، وكانت سنه إذ ذاك تسع سنين، وقيل: عشراً ((إني أعلمك كلمات))؛ أي: أفهمك كلمات ينفعك الله بهن، ((احفظ الله يحفظك)): أي: احفظ أوامره وامتثلها، وانتبه عن نواهيها، يحفظك في تقلباتك ودنياك وآخرتك؛ قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]، وما يحصل للعبد من البلاء والمصائب بسبب تضييع أوامر الله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقيل: يحفظك في نفسك وأهلك، ودنياك ودينك، لا سيما عند الموت؛ إذ الجزء من جنس العمل. ((احفظ الله تجده تجاهك)): أي: تجده أمامك؛ يدللك على كل خير، ويقربك إليه، ويهديك إليه، وأن تعمل بطاعته، ولا يراك في مخالفتها، فاتك تجده في الشدائد، كما جرى للثلاثة الذين أصابهم المطر فأووا إلى غار، فأنحدرت عليهم صخرة فانطبقت عليهم، فقالوا: انظروا ما عملتم من الأعمال الصالحة، فاسألوا الله تعالى بها؛ فإنه ينجيكم، فذكر كل واحد منهم سابقة سبقت له مع ربه، فانفجرت عنهم الصخرة فخرجوا يمشون، وقصتهم مشهورة في الصحيحين. ((إذا سألت)): أي: أردت أن تسأل شيئاً، ((فاسأل الله)) إشارة إلى أن العبد لا ينبغي له أن يعلق سره بغير الله، بل يتوكل عليه في سائر أموره؛ لأنه القادر على الإعطاء والمنع، ودفع الضر وجلب النفع واما سؤال الناس فقد لا يسر السائل لضعف النفوس بالعطاء وصدق القائل :

لا تقصد المخلوق ربك أقرب

من يقصد المخلوق حقاً يتعب

لا تسألن بني آدم حاجة

وسل الذي أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله

وبني آدم حين يسأل يغضب

((وإذا استعنت)): أي: أردت الاستعانة في الطاعة وغيرها من أمور الدنيا والآخرة، ((فاستعن بالله)): فإنه المستعان، وعليه التكلان، بيده ملكوت السموات والأرض، وهو يُعينك إذا شاء، وإذا أخلصت الاستعانة بالله وتوكلت عليه، أعانك وسددك. ((واعلم أن الأمة)): أي: سائر المخلوقين ((لو اجتمعت)) كلها ((على أن ينفعوك بشيء)): أي: على خير الدنيا والآخرة ((لم ينفعوك)) بشيء من الأشياء ((إلا بشيء قد كتبه الله لك)): أي: أثبتته في اللوح المحفوظ، ((وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك)) بالمعنى المتقدم، ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس: ١٠٧].

((زُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ)): أي: كتب في اللوح المحفوظ ما كتب من التقديرات، ولا يكتب بعد الفراغ منه شيء آخر، فعبر عن سبق القضاء والقدر برفع القلم وجفاف الصحيفة، تشبيهاً لفراغ الكاتب في الشاهد من كتابته ((احفظ الله تجده أمامك)) وهو بالمعنى المتقدم، ((تعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة)) تحبب إليه وتقرب من رحمته ورضاه بلزوم الطاعات واجتناب المنهيات في زمن سعة الرزق وصحة البدن؛ ليجازيك في زمن نزول

المصائب والمكروهات، بفرج الهموم، وكشف الغوم، ويجعل لك من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا. ((واعلم أن ما أخطأك))؛ أي: جاوزك فلم يصل إليك، ((لم يكن ليصيبك))؛ لأنه غير مقدر لك أو عليك؛ إذ لا يصيب الإنسان إلا ما قدر له أو عليه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]. ((واعلم أن النصر)) من الله للعبد إنما يكون ((مع الصبر)) على طاعة الله وعن معصيته؛ قال تعالى: ﴿وَلَنْ صَبْرْتُمْ لَهْوَ خَيْرٍ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ((وأن الفرج)) وهو كشف الغم والهم ((مع الكرب))، والكرب هو شدة البلاء، فإذا اشتد البلاء أعقبه الله تعالى بالفرج، كما قيل: (اشتدي أزمة تنفرجي)، ((وأن مع العسر))؛ أي: الضيق والشدة ((يسرًا))؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]. وقد جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((لن يغلب عسر يسرين))؛ وذلك أن الله تعالى ذكر العسر مرتين، وذكر اليسر مرتين، وفي لغة العرب أن المعرفة إذا أعيدت معرفة توحدت؛ لأن اللام الثانية للعهد، وإذا أعيدت النكرة نكرة تعددت، فالعسر ذكر مرتين معرفًا، واليسر مرتين منكرًا؛ فلهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لن يغلب عسر يسرين)).

فوائد من الحديث:

- ١- الحديث فيه جواز الإرداف على الدابة إن أطاقته.
- ٢- أن من حافظ على أوامر الله، حفظه الله في الدنيا والآخرة.
- ٣- ينبغي للمعلم شد انتباه المتعلم وتهيئته قبل إعطائه المعلومات، وهذا من قوله: ((يا غلام، إني أعلمك كلمات...)).
- ٤- فيه الحث على تربية الأبناء وتعليمهم أمور دينهم.
- ٥- أن من امتثل أوامر الله أخرج الله من الشدة.
- ٦- وجوب الرضا بالقضاء والقدر والإيمان بهما.
- ٧- أن بعد كل كرب فرجًا، وبعد كل عسر يسرًا.
- ٨- لن يصيب الإنسان إلا ما كتب الله له.
- ٩- من أراد أن يسأل فليسأل الله.
- ١٠- الأعمال الصالحة ترفع البلاء.